في تداعيات أزمة الرسومات الدنماركية

عاطف أبو سيف*

■ لم يتوقع أحد من قبل أن تنفجر العلاقة المستقرة والهادئة نسبياً بين أوروبا والعالمين العربي والإسلامي وتتوتر خطوط الحوار بينهما بالطريقة التي تسارعت فيها قضية نشر إحدى الصحف الدنماركية لمجموعة من رسومات الكاريكاتور التي تسيء للنبي الكريم ولمشاعر كل مسلم على بقاع هذه الأرض. أوروبا وفي حقبة ما بعد تفكيك المستعمرات نجحت ولو بتدرج في رسم علاقة مستقرة وفي الكثير من الأحيان إيجابية مع جيرانها العرب والمسلمين للدرجة التي باتت باريس وبرلين أشد من عارض غزو العراق وللدرجة ذاتها التي صار الاتحاد الاوروبي ليس المول الأول للشعب الفلسطيني بل واكثر من يدفع باتجاه اقرار الحقوق السياسية والوطنية الفلسطينية في الاجندة الدولية.

لكن يبدو أن القشة تلك (رسوم الكاريكاتور) نجحت في قصم ظهر هذه العلاقة. المتبصر في أصداء الأزمة يدرك أن الغضب العفوي العربي والإسلامي وإن قادته بعض النخب وردة الفعل الأوروبية بالمقابل يعيد إلى الأصداء جوهر التنميط في علاقة الغرب بالشرق. هناك افتراض وتعميم سطحي وأجوف في الطرفين حول طبيعة الآخر. مما لا شك فيه أن الرسومات بما تشكله من إهانة لشخص سيد الخلق ولمشاعرنا كمسلمين تشكل اقترافاً اخلاقياً ودينياً وسلوكياً بحق الحضارتين العربية والإسلامية لم يكن من السهل السكوت عنه، لكن مما لا شك فيه ايضاً وبذات القدر أن أوروبا كلها بدولها وشعوبها وحكوماتها ليست مسؤولة بالكامل عن مثل هذا الاقتراف. هذا الاندفاع نحو التعميم، ولا بد ان نقر بذلك، فاقم الازمة وساعد على توتير خطوط الحوار لحلها، بالقدر ذاته قاد إلى تجاهل المواقف الأوروبية والغربية التي أبدت تفهماً وأشهرت معارضتها لمثل هذه الرسومات. بالطبع ليس بمقدورنا نزع استنكار الفاتيكان لمثل هذه الرسومات وقوله بأن حرية التعبير لا يجب أن تمس المقدس عن اعتباره دفاعاً مشروعاً عن امكانية مس المقدس المسيحي، لكن هل لنا أن نقلل من قيمة هذا الموقف الديني. بالقدر ذاته كان دفاع بعض النخب العلمانية في الكثير من البلدان الاوروبية يحمل قدراً عالياً من المسؤولية الحضارية التي لا بد لنا من استثمارها والعمل معها.

علينا ان نعترف بأن اندفاع الرد العربي والإسلامي كان قاسياً. من يفهم لماذا يقوم الغاضبون بحرق مباني بعض السفارات الاوروبية في دمشق. ومن يستطيع ان يوضح لأي عاقل أي فائدة سيجنيها الشعب الفلسطيني من اقتحام المركز الثقافي الألماني ومقر المفوضية الأوروبية بغزة وتهديد الرعايا الأجانب. ثمة حقيقة تضيع دائماً وسط الضجيج والصراخ ووسط الحماسة وردة الفعل. فقط علينا الانتباه ان هؤلاء الرعايا الأجانب والموظفين الدوليين العاملين في غزة من طوع انفسهم اختاروا مساعدة الشعب الفلسطيني والعمل له في ظروف خطرة وقاسية تحت الحصار والقصف الإسرائيليين، وأنهم بذلك ربطوا الكثير من مصيرهم مع مصير الشعب الفلسطيني. هل نتذكر ريتشل كوري كيف استشهدت دفاعاً عن هذا الشعب؟ هل نتذكر الصحافي البريطاني هندل الذي وقف في وجه البلدوزر الإسرائيلي؟

إن الخطر الكامن في ردة الفعل غير المنظمة هي ان نخسر احتياطي الدعم الأوروبي لقضيتنا، وأنا استعير من حسن البطل حديثه حول احتياطي الرفض في موضع آخر. هذا الاحتياطي الهام للشعب الفلسطيني نضيعه ببعض اعمال آخر شيء يمكن أن توصف به بانها تعبير سليم عن الغضب المشروع والحقيقي الناجم عن نشر هذه الرسومات المشينة. إن الصداقات القوية والمتينة التي نجح الشعب الفلسطيني بتجسيدها ورسمها مع الشعوب الاوروبية، وهي ما كانت لتتحقق لولا الحوار الخصب ودبلوماسية المواجهة التي قادتها منظمة التحرير الفلسطينية، وحققتها جالياتنا عبر نضالاتها الحضارية في تلك البلدان لضمان الدعم الشعبي العالمي لنصرة قضيتنا، هذه الصداقات مهددة بالضياع جراء مثل هذه التصرفات. بالطبع كان لا بد من الاحتجاج والتظاهر ضد تجسيد الرسول الكريم وضد محاولة تشويه صورة سيد الخلق، لكن هل لم يكن بالإمكان التعبير عن الغضب بغير هذه الصورة، بغير مهاجمة المكاتب وتهديد الرعايا الاجانب؟ هناك ألف طريقة وطريقة لقول لا، والثائر الجيد ليس الذي يقول لا، بل الذي يعرف كيف يجعل «لا» ذات مفعول.

ربما وحده هنتغتون الآن يبتسم ويقول توقعت ذلك، لكن الحقيقة تكمن في مكان آخر وهي بعيدة كل البعد عن تصورات هنتغتون أو تنظيراته لحرب قادمة بين الحضارات. المحقق بأن ما حدث لم يكن أكثر من صعود فيروس قديم على السطح، إنه سوء الفهم والتنميط السائد بين ضفتي المتوسط من قبل طرف عن حضارة طرف آخر.

لا أحد يعرف ما الذي ستؤول إليه الامور ولا كيف ستنتهي الحادثة ولكن ما بدا واضحاً ان هناك مهمة جسيمة تنتظر الطرفين خلف أبواب الأزمة. عربياً وإسلامياً لا بد من القيام بحملة توضيح لصورة الإسلام النبيل ولصورة الرسول الكريم. بغض النظر عن فحوى هذه الرسومات فهي تعبر عن سوء فهم عميق للإسلام وتعبر أكثر عن فشل النخب العربية والإسلامية في تقديم صورة صائبة عن معتقد يدين به أكثر من سدس سكان هذا الكوكب. ولما كانت الامور تقاس بعواقبها فإن مثل هذه الصور تقول بوضوح بأن الشرخ الذي يحكم علاقة العالم بالإسلام ناجم عن جهل كامل بهذا الدين. وإذا كان يمكن رد الكثير من هذا الجهل وهذا التنميط إلى مواقف مسبقة ذات عمق تاريخي فإنه لا يمكن فهم الكثير الآخر منها دون النظر في المرآة والقول بصراحة نحن مقصرون. ربما ساهم التوتر الذي ساد العلاقات الدولية وعلاقة العالم الغربي تحديداً مع العالمين العربي والإسلامي عقب أحداث الحادي عشر من ايلول/سبتمبر وتفجيرات مدريد ولندن والتهديدات بتفجيرات أخرى (وهذه أفعال مشينة ولاقت استنكاراً كبيراً في العالمين العربي والإسلامي) في تعميق مثل هذا التنميط، إلا ان الحقيقة تبقى في المقابل بأن النخب ورأس المال الثقافي العربي لم تفعل شيئاً لمحاربة هذا التنميط عبر الفعاليات الثقافية والحضارية التي تساهم في اضاءة جوانب هامة وحيوية في التاريخ والفكر والمعتقد الإسلامي، وترك الأمر لوسائل الإعلام الغربية ولبعض النخب اليمينية تصوغ خطابها عن العالم الإسلامي وتروج له بكل حرية.

في المقابل لا بد أن تعيد أوروبا رسم علاقتها مع جيرانها العرب والمسلمين. إذا كان ثمة ما تقترحه هذه الأحداث هو تعثر مشروع الشراكة الاورمتوسطي الذي بادر إليه الإتحاد الاوروبي لترسيخ علاقته مع دول الجوار المتوسطي وكلها عربية باستثناء اسرائيل وتركيا. هذه الشراكة رغم نجاحاتها القليلة فشلت في ترسيخ حوار جدي حول القيم والثقافة والدين، وهي أولت القليل من الاهتمام لمثل هذه القضايا مركزة على الدعم النخبوي للمجتمع المدني العربي الذي كثيره يعيش في أبراج عاجية في محاولة لتسريع عمليات التحول الديمقراطي واللبرلة في المجتمعات والكيانات السياسية العربية. النتيجة واضحة بعد ان احتفلت الشراكة الأورمتوسطية العام الماضي بعيد ميلادها العاشر: نجاح قليل، مال كثير. ما علينا، ليست هذه بالقضية الآن، ما نرمي إليه هنا وجوب أن يتم تعميق الحوار الجدي ليس بين النخب العاجية بل بين التشكيلات والتمظهرات المجتمعية والمحلية المختلفة في اوروبا وفي العالم العربي حول اسئلة تسعى لتعميق فهم كل طرف للآخر سعياً نحو تعزيز التقبل الحضاري للآخر وقيمه ومعتقداته ومقدسه.

بدا الأمر وكأن اوروبا كلها تستعدي العالم الإسلامي، او كأن الرسومات تلك ما كانت لتنشر لولا الدعم الحكومي الذي تحظى به. كان المطلب الإسلامي والعربي هو أن تقدم حكومات هذه الدول اعتذاراً عن الرسومات أو تتخذ اجراءات عقابية وتأديبية بحق ناشريها. الحكومات الاوروبية والتي ابدت حرصاً على علاقتها بالعالم الإسلامي وباتت قلقة من تفاقم الأزمة اوضحت انه ليس بمقدورها تكتيم افواه الصحافة نظراً لطبيعة المجتمع الأوروبي. وهنا تدحرجت كرة الثلج وتفاقمت الأزمة بتضامن الكثير من الصحف الأوروبية مع «مبدأ حرية الصحافة»، بنشرها لذات الرسومات لتزداد جبهات المواجهة لتشمل ألمانيا وفرنسا وغيرها.

بالطبع لا توجد حرية مطلقة، ولو كان الامر كذلك لما كانت هناك حاجة لقوانين تنظم علاقات البشر وعلاقات الدول والمجتمعات بعضها ببعض. وديدن العلاقات بين البشر هو مبدأ الاحترام القائم على تقبل الآخر. من هنا فإن جنوح بعض النخب الصحافية والفكرية الأوروبية لتغليف الأمر بسترة حرية الصحافة ليس إلا انتهاكاً وإخلالاً لمبادئ كثيرة تحكم علاقات البشر. لأن السخرية السياسية شيء والسخرية من المقدس شيء آخر. أنا لا اعتقد بأن كائناً من كان في أوروبا يستطيع ان يسخر من معتقدات اليهود لأسباب ذات علاقة بالمعاداة للسامية. إن الخطر الذي تنذر به تبعات هذه الازمة هو ان تتحول معاداة السامية إلى معاداة الإسلام وهو ما ساهمت به للأسف الكثير من التصرفات غير المقبولة للبعض مثل تفجيرات ايلول/سبتمبر ومدريد ولندن.

أنا اعتقد بوجوب فتح حوار عميق وبناء مع النخب الاوروبية حول ذلك، لأن أوروبا أكثر من غيرها تعرف مخاطر أن ينزلق البشر نحو كره أعمى للأعراق والمعتقدات، وهي أكثر من غيرها دفعت ثمناً باهظاً لذلك.

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتم استبدال الفوبيا بفوبيا أخرى. إن افضل طريقة للتعامل البشري هي الحوار والتفاهم. إن الحوار الحضاري وحده كفيل بأن يطرق مثل هذه المناطق الساخنة في العلاقة بين ثقافتين صبغتا الكثير من التاريخ الفكري بألوانهما المختلفة. فقط وحده الصراع يجعل الطريق أكثر ظلاماً، والصارخون في الضوضاء أيضاً لا يسمعون بعضهم بعضاً.

* كاتب من فلسطين يقيم في ايطاليا

دفاع عن محمد (ص): لا تلومونا على حب النبي

د. خالد الطراولي*

■ هذا ليس نصا فكريا ولا أدبيا ولكنه حديث القلوب، وما أقله في زماننا، أردت ترك زمامه إلى العقل حينا وإلى العاطفة حينا آخر دون أن أخل ببديهيات الكتابة والإملاء.

ليعجب المرء في هذه الأيام المظلمة من عداء من بعض الأقلام والأصوات، بدأ ينسج خيوطه حول الإسلام كدين وحضارة، ليتحدد في مقولات شاحبة ومسمومة وطاعنة في صاحب الرسالة. فقلما توجهت الأصوات والأقلام إلى توجيه اللائمة والعداء لهذا الدين، إلا وانصب الغل والغضب والمكر على الرسول الكريم باسم الحرية حينا وباسم الإبداع حينا آخر.

وليست هذه المرة الأولى التي تمر بها الأمة في القرون الأخيرة من أزمات ومواجهات دون التعرض بالسب والشتم والتعريض لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وحياته، الخاصة منها والعامة. عزاؤنا الوحيد هو أن من شاغب وافترى واستهزأ كان غالبا في ضفة الجهلة بهذا الدين وعموما من رعاع القوم، أو ممن استرعى سرطان الكراهية والعداوة عقله وعاطفته، وران ذلك على قلبه فلم يعد يسمع ولا يرى.. ظلمات بعضها فوق بعض... ولم يقترب أحد بموضوعية وحلم واعتدال من هذا الرجل، وهم كثير في الضفة الأخرى، إلا أعطاه حقه أو قارب ذلك، فمنهم من جعله أحد كبار المصلحين، ومنهم من رأى فيه أحد الثائرين العظام... وقائمة المقسطين تطول. عزاؤنا أنه من عدل وأنصف كان غالبا أقرب إلى ثقافة العقول من ثقافة البطون، كانوا أفرادا في مخابرهم أو جامعاتهم، همّهم نفع ذواتهم وأوطانهم والإنسانية جمعاء.

لسنا ضد النقد والاستفسار والدراسة، فهذه موائد الكرام التي ندعو إليها بكل حب وشره وثبات، غير أن المرفوض فكرا وذوقا هو السقوط في التعريض والتشويه الظاهر والمبطن الذي يستسقي ينبوعه من حسابات سياسية ضيقة، أو سياسوية مقيتة، أو دينية وضيعة، أو جهل مدقع!

وبعد، هل يحتاج هذا السيد الفاضل إلى الدفاع عنه؟ لست أدري لماذا اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أكتب هذه الجملة وها أنا أسجلها! هل يحتاج إلى دليل وحجة ومحام، من كرس كل حياته إلى رسالة هداية لم يجعلها خاصة بقومه، أو بقبيلته، أو بجنسه بل أرادها رحمة للعاقل ولغير العاقل، بشرا وحيوانا وجمادا (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين). لم يفقه الكثير ممن حولنا هذه العلاقة الفريدة التي تربط هذه الأمة بصاحب قيادتها، لم يفهم ولم يستوعب أقوام من غير ضفتنا هذا اللقاء الحي والدائم وهذا الحب المتبادل والمسترسل بين جموع حاكمة ومحكومة، وبين هذا الأمي الغائب الحاضر في كل آونة وحين. وحتى تنجلي الغشاوة، وتنقشع سحب قلة الزاد، يطيب لي مرافقة من اقتطع تذكرة هذه المصافحة بدون ميل أو مواربة، ومن ركب دون إذن مسبق، في هذه الرحلة القصيرة، في مشاهد عابرة... حتى لا نلام مجددا على حب النبي!

فمشاهد الحب والرحمة مع أمته لا تقاس ولا تنتهي... لم نغب يوما عن ذاكرته، ولا عن يومه وليله، حتى في أعز الأمكنة، وأفضل الأحوال، التي ينسى فيها المرء ذاته... لما وقف أمام ربه في ليلة المعراج وسأله بدون حجاب وبدون كيف، أجابه السيد الفاضل: لا أسألك عن فاطمة ولا عن الحسن ولا عن الحسين، أسألك عن أمتي...أمتي..!

لا تلومونا على حب النبي... فرفعة منزلته لم تحط من تواضعه وبساطته، وقف أمامه ذات مرة أحد الأعراب، فاستشعر عظمته ووقاره وتواضعه، فارتجف واضطرب هيبة من الرسول الكريم، فهدأ من روعه قائلا له: هوّن عليك فما أنا بملك ولا سلطان، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد!

لا تلومونا على حب النبي... كان معاشه لا يرتقي حتى ضعاف رعيته، وصفت زوجته عائشة حاله وهو يملك الحضر والمضر «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتاليين حتى قُبض...» «والله.. إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال... وما أُوقدَت نار في أبيات رسول الله»!.. «كان معظَم عيشنا على الأسودين التمر والماء!»

لا تلومونا على حب النبي... كان ينام على الحصير، حتى ترك له بصمات على جنبيه... ورآه عمر بن الخطاب ذات يوم كذلك فبكى لحاله إشفاقا عليه وتوجعا، وأراد بعض أصحابه رأفة به أن يهيئوا له فراشا أقل خشونة، فقال لهم: ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها.

لا تلومونا على حب النبي.. بعدما أخرجه قومه ودفعوا به إلى الصحراء وحرموه البلد والأهل والأحبة وذكريات صبي يتيم.. ونظر إلى رمالها وشعابها وبنيانها وهو يودعها وداع مظلوم ومبتلى، نظرة حزن وحيرة، نظرة المواطن الذي حرم وطنه ظلما وعدوانا : إنك أحب أرض الله إليّ ولولا قومك أخرجوني لما خرجت... وبعد سنين من الإبعاد والنفي واللجوء والمكائد والحروب... عاد مظفرا ليقول لهم ماذا تراني فاعل بكم... لا تثريب عليكم اليوم... اذهبوا فأنتم الطلقاء!

لا تلومونا على حب النبي... كان نبيا في وحيه، كان رسولا في تبليغ رسالته، وكان إنسانا في بيته ومع زوجه وأحفاده... فقد تراه يجعل ظهره مطية للحسن والحسين، حتى أثناء الصلاة... فأطال على الناس ذات مرة السجود، فظنوا به الظنون... فلما فرغ سألوه عن سبب إطالته، فقال إن ابني ارتحلني (ركبني) فكرهت أن أعجله..! ويسابق زوجه، فتسبقه مرة ويسبقها مرة فيقول لها مداعبا هذه بتلك.

لا تلومونا على حب النبي... كان ملازما أمته وهمومها، يعيش فرحها ويعيش أزماتها... لما كان الناس يحفرون الخندق حول المدينة اتقاء من هجوم قريش وحلفائها، كان الرسول معهم بفأسه... وكان الناس في ضنك شديد، فالتقى عليهم الجوع والعطش والتعب والنصب لقلة ذات اليد ولدقة الموقف، فكان الناس يضعون حجرا على بطونهم حتى تلتصق بأجسادهم فلا توجعهم و لا تمزق أحشاءهم، واشتكى القوم من هول الموقف ومن الجوع المضني ورفعوا عن بطونهم ليُرُوا رسولهم الأحجار التي وضعوها... ورفع النبي عن بطنه الشريفة فكان حجران! لا لوم، لا اعتذار، وإنما قدوة ونموذج، وصبر وتواضع وصحبة... وتوقف الزمن، وجثا التاريخ على ركبتيه يبحث عن رفيق!

لا تلومونا على حب النبي.. كان قوّاما صوّاما، يقوم ليله عابدا مسبحا متضرعا باكيا حتى تتفطر قدماه الشريفتان وتتبلل لحيته، فتتعجب زوجه وتقول له وكلها شفقة عليه: لقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر... وكأن لسان حالها يقول فلماذا هذا الإبحار في القيام والذكر والتذلل؟ فيجيبها بكل براءة المحب العاشق لربه والصادق مع نفسه: يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا!!

هذه ومضات من حياة النبي، وأنا مقصر لا محالة، والقلم عاجز عن التعبير بما يعجّ في أعماقنا وذواتنا من حب واحترام واتباع لمحمد... رفعت الأقلام وجفت الصحف..! ويبقى حب أمة لنبيها ملاذا حين العواصف، ودافعا حين الشدائد، ومغيثا حين الهزائم، وأملا حين اليأس والإحباط، وتواضعا حين الانتصار...ويبقى محمد... فلا تلومونا على حب النبي! صلى الله عليه وآله وسلم.

* كاتب من تونس
ktraouli@yahoo.fr

العنصرية عندما تصيب الديمقراطيات بالعمى!

د. حسن عبد ربه المصري*

بينما أجمعت الصحف البريطانية التي صدرت صباح الخميس 26 كانون الثاني/يناير على أن الإنتخابات الفلسطينية كانت ناجحة بكل المقاييس وأن الفلسطينيين نجحوا في تقديم صورة مشرفة للتجربة الديمقراطية في المنطقة وعلى مستوى العالم، وقفت الرباعية الأوروبية والإدارة الأمريكية ضد نتائجها.. ناهيك عن إسرائيل التي توصف بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط..

ومهما اختلفت التحليلات حول الأسباب الداخلية والخارجية التي مهدت الطريق لفوز منظمة حماس أولاً على مستوى المجالس المحلية ثم على مستوى المجلس التشريعي، فالأمر الذي لا يمكن أن تختلف عليه النظم الديمقراطية أن الإنتخابات على كلا المستويين جاءت معبرة أصدق وأدق تعبير عن رغبة وحاجة وقناعة الشعب الفلسطيني، ومن هنا ليس من حق أحد كائنا من كان أن يحتج على النتيجة أو يعترض على فوز المرشحين الذين اختارهم الشعب أو يهدد بعدم التعاون معهم في المستقبل لاستكمال مسيرة السلام..

لماذا الإحتجاج على النتيجة أليس في ذلك تدخل في حق الشعب الفلسطيني في الإختيار الحر الذي توصي به مواثيق حقوق الانسان ومطالب الإصلاح التي تنادي بها واشنطن والعواصم الاوروبية؟؟ أليس بناء الدولة والمؤسسات الديمقراطية في داخل السلطة الوطنية الفلسطينية، يمثل مطلبا ملحا من جانب إسرائيل منذ أن بدأت الاتهامات تتوالى على النظام الذي كان يقوده الرئيس الراحل ياسر عرفات ثم على النظام الذي يقوده منذ عام الرئيس محمود عباس؟

لماذا لم تحتج هذه الديمقراطيات على الممارسات العنصرية التي قامت بها إسرائيل داخل القدس العربية المحتلة عندما أصرت على أن يتم الإقتراع فقط عبر مكاتب البريد «في ظل مراقبة خانقة وقيود شديدة الوطأة» على حد وصف صحيفة «الديلي تلغراف» اللندنية ورفض القبول بإقامة مراكز للتصويت كما طالبت بذلك التوصيات الأوروبية؟ ولماذا لم يحتج فريق المراقبة الدولي على مثل هذه الإجراءات العنصرية التي تصدر من الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة.. ولماذا لم يحتج المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض على ما صرح به زعيم حزب الليكود بنيامين نتنياهو لقناة «فوكس» الأمريكية بعد ظهور النتائج بأن على أسرائيل «أن تتعامل بقسوة أكثر مع حماس وتقول لها إن نجاحها في انتخابات ديمقراطية لا يعطيها الشرعية» ولم يكتف بذلك بل كتب في اليوم التالي مطالبا واشنطن بمقاطعتها «لانها تمثل خطرا ارهابيا». ونسأل كيف وممن تتحصل النظم والحكومات على شرعيتها إذن.. ان لم يكن عن طريق صناديق الإقتراع.. وكيف وممن سيحصل الحزب الفائز في إنتخابات إسرائيل التشريعية في آذار/مارس القادم على شرعية تشكيل الوزارة الجديدة؟ أليس من النتائج التي ستعكسها نفس الصناديق؟ أم أن صناديقهم مستحقة الإحترام والإعتراف وصناديق الشعب الفلسطيني مدانة لأن الذين استخدموها للتعبير عن آرائهم يناضلون من أجل حريتهم واستقلال دولتهم التي تأخر قيامها حوالي الستين عاما..

الإعتراض على فوز مرشحي منظمة حماس.. سببه الكفاح المسلح الذي تتبناه طريقا لتحرير الوطن الفلسطيني.. هذه النضالية في التحرير، التي تقرها الشرعية الدولية، تفتح الباب على مصراعيه لنتساءل وهل مدت الدول المعترضة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية يد السلام للرئيس الفلسطيني السابق أو الحالي بما يدعم موقفه التفاوضي السلمي ولو عن طريق الضغط على إسرائيل لاطلاق سراح السجناء أو وقف مصادرتها للأراضي لبناء سورها العنصري العازل او اجبارها على تنفيذ التزاماتها الدولية تجاه السلطة الفلسطينية، حتى يتمسك الشعب الفلسطيني بمنهج منظمة فتح في هذه السياسات التي امتدت منذ توقيع إتفاق اوسلو ومنه إلى بداية نشاط السلطة في قطاع غزة والضفة الغربية، ولم تؤتِ بثمرة واحدة من ثمارها حتى اليوم..

لماذا التهديد بعدم التعاون وبرفض التمويل وبقطع المنح وبمنع دخول وحركة أعضاء المجلس التشريعي بين الضفة وغزة؟ ولماذا الإصرار على أن تبدأ حماس أولا بنبذ الكفاح المسلح؟ وهل ساهم نبذ منظمة التحرير الفلسطينية للنضال في تقريب وجهات النظر بينها وبين الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من أجل إقامة سلام عادل ودائم ومستقر بين الطرفين؟ وهل اعتراف واشنطن بالرئيس السابق ياسر عرفات والسماح له بدخول بيتها الأبيض أقام الدولة التي وعدت إدارتها بمساندتها؟ وهل وفر تقليص أهداف تحرير الأراضي الفلسطينية التي احتلت بعد عام 67 فرص تحرير البقية الباقية منها؟ أم أنه فتح الباب لتنازلات أكبر وأوسع..

كل الأطراف تنظر إلى فوز حماس من زوايا تبتعد عن الحقائق التي تتواجد فوق الشارع السياسي الفلسطيني.. نعم هناك فساد على مستوى السلطة الوطنية يجب أن يحارب وهناك تعطيل للمسارات الديمقراطية التي وعدت بها السلطة منذ سنوات وهناك تسويف في الوفاء بالتزامات السلام كما تراها غالبية التيارات التي يتشكل منها هذا الشارع، لكن هناك أيضا ارض محتله فشلت الممارسات العنصرية التي تقوم بها إسرائيل منذ عقود طويلة في إيصال التفاوض حول تحريرها إلى بر الأمان.. وهناك ادارة امريكية تتنصل من تعهداتها وهناك رباعية اوروبية تكيل الحق بمكيالين.. ولم يكن أمام الشعب الفلسطيني إلا أن يبحث عن بديل.. البديل الذي اختاره صاحب المصلحة الحقيقية في غزة والضفة هو البرنامج الذي تمثله حماس.. وهو ببساطة التحرير عن طريق النضال وعبر طاولة المفاوضات، لماذا الإعتراض إذن وكل الشعوب التي كانت مستعمرة تحررت بهذه الكيفية؟ وبدلا من أن تطمئن كوندوليزا رايس وزيرة خارجية أمريكا الشعب الذي يناضل من أجل حريته واستقلاله بأن واشنطن ستقف إلى جانبه حتى يحصل على حقوقه التي وعد بها الرئيس الأمريكي.. تحدثت هاتفيا مع نظيرتها الإسرائيلية وطمأنتها بان المجتمع الدولي سيطلب من حماس الإعتراف بإسرائيل. الدولة المحتلة التي تملك ترسانة نووية تفوق – وفق بعض التقارير – ما تملكه بعض الدول الأوروبية، في حاجة إلى «طمأنة هواجسها» بعد أن فازت حركة نضالية بحق تشكيل حكومة تدير شؤون شعبها الحياتية وتسعى عبر الطرق النضالية المتعارف عليها لنيل استقلاله وتأسيس دولته.. الدولة المحتلة لا ترضى بالخلاصة التي توصل إليها المقال الافتتاحي لصحيفة «الاندبندنت» يوم السبت 27 كانون الثاني/يناير بعنوان «هذا صوت الشعب الفلسطيني» حين قال الكاتب بملء فيه «لا أحد يمكنه ان يشكك في شرعية انتصار حماس»، وتصر على القول بأنها لا تمثل الشعب الفلسطيني!!.. أين هذا الرأي المحايد من لي الحقائق وتزييفها الذي جاء على لسان يارون لندن الكاتب في صحيفة «يديعوت احرونوت» والذي ادعى فيه أن آليات الديمقراطية «تُعزز من قوة التنظيمات التي تنادي بالحكم الاسلامي مما سيؤدي الى قتل الديمقراطية الفلسطينية على يد منظمة حماس» ويتنبأ مسبقا انها ستؤثر سلبا على علاقة «هذا الشعب بإسرائيل لأن حماس غير قابلة للتطوير وستتجمد حيث هي الآن في مكانها».. مما يجعله يستبعد «إحتمالية التقدم في مسار خارطة الطريق، الأمر الذي سيؤدي بإسرائيل إلى الاعتراف بأن الأمل قد تبدد نهائيا في التوصل إلى تسوية سلمية في المستقبل القريب». بدلا من مناصرة حق الشعب الفلسطيني في اختيار ممثليه، تقف العنصرية بكارثية مفرطة في طريق تفهم طبيعة هذا الإختيار ومدى الحاجة إليه، لكن هذا النصر سيكتمل وستثبت الأيام أن طريق التحرير والاستقلال الذي يسير فيه هذا الشعب معتمداً على البندقية التي تحمي التفاوض هو الضمانة الوحيدة التي عميت بصيرة الاطراف الاخرى عن أن تراها برغم دعاوى الديمقراطية التي تتشدق بها..

* إستشاري إعلامي مقيم في بريطانيا
drhassanelmassry@yahoo.co.uk

اعتراف حماس بإسرائيل اخطر من اعتراف كل فصائل منظمة التحرير

د. إبراهيم أبراش*

■ حركة فتح تثور وتغضب على نتائج الانتخابات وبعض قادتها يسارعون لاتخاذ موقف بعدم المشاركة مع حماس بالحكومة ،وبعضهم الآخر يحرض الشارع الفتحاوي ويخرجه بمظاهرات أشبه بحالة التمرد على نتائج الانتخابات وعلى ما يزعمون بأنه تقصير من القيادة التقليدية ... وحركة حماس تناور وتتلاعب بالكلمات حول الاعتراف بإسرائيل والمفاوضات والمقاومة ،وهي تبدو أو تريد أن تبدو وكأنها حائرة ما بين التمسك بثوابتها وهي في المعارضة والضغوط التي تمارس عليها لتكون أكثر واقعية مع المتطلبات الدولية والاتفاقات التي وقعتها السلطة السابقة ومنظمة التحرير مع إسرائيل....والدول الأوروبية والولايات المتحدة ترسل رسائل التهديد والوعيد بأنها سوف تقطع المساعدات إذا لم تعترف حماس بإسرائيل وتنبذ العنف أو الإرهاب ... وكُتاب ومحللون كثيرون يرون أن حماس تسير في نفس الطريق الذي سارت به منظمة التحرير ،أي التدرج بالنزول من فوق الشجرة –من تحرير كل فلسطين بالكفاح المسلح إلى الاعتراف بإسرائيل وبقرارات الشرعية الدولية–بمساعدة مصر والأردن ودول خليجية ،وهم يعتقدون بأن سرعة نزول حماس من فوق الشجرة ستكون أسرع لأنها انتقلت من حيث لم تحتسب من المعارضة إلى حزب سلطة بأغلبية مرتفعة من الأصوات.

لن نقلل من أهمية فوز حماس بالانتخابات ولن نهون من شان الاختيار الشعبي ،فحماس فازت وحركة فتح وقوى اليسار ومن يسمون بالتيار الثالث هزموا شر هزيمة ،وسواء فازت حماس لأنها أتقنت التعامل مع الماكينة الانتخابية وعرفت كيف تكسب الجمهور ،أو فازت لأن أحزاب السلطة لم تعط أملا للشعب لا على المستوى السياسي ولا على المستوى الاقتصادي ،أو القول بأن حماس وصلت للسلطة لأن هناك صفقة دولية يشارك فيها حتى بعض رجال السلطة وهذه الصفقة بدأت منذ سنتين تقريبا عندما قررت حماس المشاركة بالانتخابات المحلية لأنها لمست ان مشروعها الجهادي وصل إلى طريق مسدود، وقررت الولايات المتحدة والأوروبيون مد عصا الإنقاذ لحماس بإشراكها بالسلطة كجزء من سياساتها الإستراتيجية الكوكبية التي اعتمدت سياسة استيعاب الحركات الإسلامية في إطار النظام السياسية القائمة ،وهذه الصفقة هي أوسلو جديدة – أوسلو حمساوية–الخ. ومهما كانت الأسباب فقد أصبحت حركة حماس وبمقتضى قواعد اللعبة الديمقراطية والقانون الفلسطيني مؤهلة لقيادة النظام السياسي الفلسطيني والتحكم بسيرورته سواء شكلت الحكومة أم لم تشكل وذلك من خلال امتلاكها لأغلبية الأصوات بالمجلس التشريعي.

فما الذي ستفعله حماس وكيف ستشكل حكومة قادرة على التخاطب مع العالم ومواصلة مسيرة المفاوضات والتسوية ؟

من خلال تصريحات من أكثر من مسئول حمساوى نلمس محاولة للحركة للاقتراب من متطلبات التسوية ومغازلة الولايات المتحدة والأوروبيين،والحركة تحاول خلق طمأنينة عند الجمهور الفلسطيني من حيث تأمين مصادر التمويل الأجنبي ،وطمأنينة عند الدول الأجنبية بان حماس ليست حركة إرهابية بالشكل الذي يعتقدون ،وقد أثبتت حسن نيتها عندما التزمت بالتهدئة لمدة عام تقريبا فيما إسرائيل تستبيح الأرض في الضفة الغربية وتصادر وتهدم وتغتال المقاومين من حركة الجهاد وبقية الفصائل، وتصريحات بعض المسؤولين في حركة فتح وفصائل أخرى قد يسهل على حماس مهمتها ،وهي التصريحات التي تقول بان هذه التنظيمات لن تشارك بحكومة مع حماس إلا إذا اعترفت حماس بالاتفاقات الموقعة وبإسرائيل ،وقد سمعنا بان الرئيس أبو مازن قال مثل هذا القول بالقاهرة أمس – 1–2–2006 ،وإن صح هذا القول فهو خطير لأنه لا يجوز لطرف فلسطيني أن يطلب من طرف فلسطيني أخر أن يعترف بإسرائيل ،ولأن ذلك أيضا يمنح حركة حماس الفرصة لأن تقول بأنها تراجعت عن مواقفها السابقة واعترفت بإسرائيل لأنه مورس عليها ضغوطات من الرئاسة ومن الفصائل الفلسطينية ! .

مع كامل التقدير للشعب ولاختياره ومع رغبتي الأكيدة بان يتم التوصل لتشكيل حكومة ائتلافية ،إلا أنني أرى أن اعتراف حماس بإسرائيل سيكون أمرا خطيرا وأكثر خطورة من اعتراف كل فصائل منظمة التحرير ،ذلك أن حماس تمثل توجها دينيا وتطرح نفسها كمعبرة عن الإسلام والمسلمين في فلسطين وأنها امتداد لجماعة الإخوان المسلمين ،ونظرا للبعد الديني للصراع بيننا وبين الكيان العبري ،فإن اعتراف حماس بإسرائيل سيشكل انقلابا في مجمل الصراع في المنطقة وسيكون له تداعيات أبعد مدى من فلسطين ،الاعتراف بفلسطين من طرف حركة المقاومة الإسلامية حماس ،سيدفع كل مسلم لأن يتساءل حول معنى أن فلسطين وقف إسلامي لا يجوز التفريط به ،وحول معنى أرض الرباط ،والأرض التي باركنا حولها ،ومعنى حمل الرايات الخضر ومعنى الإسلام هو الحل ،ومفهوم العمليات الاستشهادية ولماذا كانت أصلا ولماذا سقط أكثر من أربعمائة شهيد خلال الانتفاضة الخ .

أتمنى صادقا أن لا تخطئ حركة حماس وتقدم على مثل هكذا اعتراف ،وان تجد صيغة ما للمشاركة بالنظام السياسي والدفع بعملية التسوية إلى الأمام دون أن تسجل على نفسها مثل هذه الخطيئة التي لن تقتصر أضرارها على المرحلة الحالية بل على الأجيال السابقة ،وربما حركة حماس تدرك لماذا هذا الإصرار الأمريكي والأوروبي والعربي الرسمي على مشاركة حماس بالانتخابات ،هذا الإصرار لأنهم يريدون من حماس ان تعترف بإسرائيل وهم مستعدون أن ينخلوا عن رجالهم السابقين في السلطة – وقد فعلوا – حتى تشارك حماس بالتسوية وتعترف بإسرائيل ،وإذا ما فعلت حماس ذلك فلن يكون هناك مبرر لأبن لادن أو لصدام جديد أو لحزب الله أو لأية جماعة إسلامية أن تتحدث عن تحرير فلسطين أو تبرر